القرآن الكريم
«بلاغته وإعجازه»

د.حميد الله عبدالقادر*

القرآن ومعناه: القرآن علم على ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: "وهو كلام الله المنزل على سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته"[1] ...فمعانيه وصياغته من عندالله...وهو المدوّن في المصحف والمبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس... "**ان هو الا وحي يوحى**".[2] وللقرآن أسماء متعددة منها: الكتاب، والفرقان، والذكر... وكلمة قرآن معناها: الجمع والتأليف فقوله تعالى: "**إنّ علينا جمعه وقرآنه**"[3] أي تأليفه وسمى مابين دفتي المصحف، قرآنا، لأنه جمع السور وضمّ بعضها إلى بعض، أو معناها، القراءة، فتقول قرأت قراءة حسنة، وقرآنا حسناً، فقوله تعالى: "**أقم الصّلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا**"[4] ... أي قراءة الفجر يعنى صلاة الفجر، وسمي قرآنا لأن القراءة عنه والتلاوة منه،[5] وقد تكرر لفظ القرآن ومشتقاته في المصحف الشريف سبعين مرة... كقوله تعالى: "**انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا**"[6]

وأسماء القرآن عديدة تدل على شرفه وفضيلته: كما أن أسماء الله تعالى تدل على جلالته وعظمته. وقد ذكر الفخر الرازي

---

*محاضر بمعهد العلوم الإسلامية-جامعة بنجاب

١- مباحث في علوم القرآن،ص١٨.

٢- النجم: ٤.

٣- القيامة: ١٧.

٤- الاسراء: ٧٨.

٥- تفسير غريب القرآن لا بن قتيبة، ص٣٣.

٦- الانسان: ٢٣.

للقرآن اثنين وثلاثين اسما[1] وجعل الفيروز آبادي للقرآن مائة اسم.[2]

وأشهر أسماء القرآن أربعة:

الذكر: لأنّ الله ذكر به عباده. وعرفهم فيه فرائضه وحدوده...قال الله تعالى: "**وهذا ذكر مبارك أنزلناه**".[3]

الفرقان: لأنه فرّق بين الحقّ والباطل..."**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**".[4]

الكتاب: لأن الله تعالى كتب أحكامه وتكاليفه على عباده، أي أوجبها عليهم قال الله تعالى:"**وهذا كتاب أنزلناه مبارك**"[5]

والقرآن: أي البيان ومنه..."**فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه**"[6] أي بيناه، لأن فيه بيانا للناس فيما يحتاجون إليه في أمور دينهم.

والسورة معناها: الابانة بأن الكلام مفصول عما قبله، وسميت في القرآن سورة، لشرفها وارتفاع قدرها، تماماً كما يقال لما ارتفع من الأرض سور، أو لأنه يبنى قطعة قطعة، ويقال أيضاً للدرجه الرفيعة من المجد والملك سورة، كقول النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر:

ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب

والآية: جماعة الحروف وهو من قولهم، خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم... أو بمعنى العلامة، لأن الآية علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها، ومنه قول الله تعالى: "**إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم**".[7]

والحكمة في تقطيع القرآن سورا، والسور آيات معدودات ان تكون كل سورة وكل آية وحدة مستقلة. وكيانا أصيلا وقرآنا معتبرا وفي تحديد السورة تأكيد لكونها معجزة وآية من آيات الله جل ثناؤه.

ومن السور ما يطول حتى يبلغ ٢٨٦ آية كسورة البقرة. ومنها ما يقصر حتّى لا يزيد على ثلاث آيات كسورة الكوثر ليدل على أن الطول ليس شرط الإعجاز، كما أن

١- مفاتيح الغيب: ١/١٦١-١٦٣.
٢- البصائر، ١/٨٨.
٣- الأنبياء : ٥٠.
٤- الفرقان : ١.
٥- الأنعام : ٩٢.
٦- القيامة : ١٨.
٧- البقرة : ٢٤٨.

القصر لا يخرج السورة عن الإعجاز، بل إن سورة الكوثر رغم قصرها معجزة إعجاز سورة البقرة على طولها يقول الزمخشري: "إن الفائدة في تقطيع القرآن سوراً وآيات أن القارئ إذا ختم السورة وانتهى من آياتها كان ذلك أنشط له وأبعث على الجد والتحصيل منه لو استمرّ على الكتاب بطوله... كما أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد انه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة فيعظم عنده ما حفظه"[1]

والذي انعقد عليه اجماع الأمة، واتفق عليه المسلمون كافة أن عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة وهي التي جمعها عثمان بن عفّان رضي الله عنه. وكتب بها المصاحف. وبعث بكل مصحف إلى مدينة من مدن الإسلام. ولا التفات إلى الرأي القائل بأن الأنفال وبراءة سورة واحدة. أو من جعل المعوذتين سورة واحدة.

وعدد السور التي نزلت بمكة خمس وثمانون سورة. وأول السور المكية (العلق والقلم والمزمل والمدثر).

أما السور التي نزلت بالمدينة فعددها ثمان وعشرون سورة. وأول ما نزل بالمدينه: (البقرة والأنفال وآل عمران والاحزاب والممتحنة) أما الفاتحة فاختلفوا فيها: فقيل مكية وقيل مدينة. وبذلك يكون مجموع عدد سور القرآن ١١٤ سورة.

وعدد آيات القرآن ٦٢٣٦ آية. عدد كلمات القرآن ٧٧٤٣٩ كلمة وعدد حروف القرآن ٣٢٣٠١٥ حرفاً.[2]

القرآن المعجز

القرآن الكريم هو المعجزة الباقية الخالدة، التي نصبها رب العزة تبارك وجل في علاه، شاهداً حياً ناطقاً بصدق الرسول العظيم عليه الصّلاة والسّلام. ولقد تحدى الله بها العالم كله انسا وجنا، فما ثبتوا لهذا التحدى، بل أظهروا عجزا صارخاً،

١- البرهان للزركشي، ١/ ٢٦٥.

٢- القرطبي، ١/ ٥٦-٦٧.

وعياً بليدا وفهاهة فاضحة...ولقد سجّل الله عليهم نكوصهم عن مجاراة القرآن ومسايرته في آفاقه العالية حيث قال الله تعالى: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا".[1]

ومعانى القرآن على الرغم أنه نزل منجما الاّ انه تلاقت مقدماتها بنتائجها ومهدت أولاها لأخراها. ولن تجد في معانى القرآن ما تجده في غيره من كلام البشر من المعانى الساقطة أو التافهة، بل كل معانيه سامية قوية. آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ،وانتظمت سعادة الأولى والآخرة، ونزلت هدى ونوراً للبشرية كلها، فقضت على الأوهام الباطلة، والأساطير الكاذبة، والعبادات الضالة، والأديان المنحرفة، ونقلت الإنسانية الحائرة من عصر تسوده الفوضى وتذيع فيه مبادئ الطغيان والعبودية، إلى حياة فيها رضى وأمن وسلام.

إن هذا القرآن قبس من الهدى والنور نزل به جبريل من السماء إلى الأرض على سيد الخلق وأشرف الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، فبلغه الناس، وأذاع اخلاقياته ومثالياته في كل مكان، وبذلك نشرت صفحات جديدة مشرقة ناضرة في تاريخ الإنسانية، وكان لها من وراء ذلك ميلاد حضارة جديدة.

إنه ألفاظ اذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، واذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الشفور تضحك في وجه الغيوب، وان أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب.

ومعانٍ بّينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به مرآة الإيمان وجه الأمان، بينا هي تمثل للمذنب حقيقة الإنسانية حتى يظن انه صنف آخر من الإنسان، اذ هي بعد ذلك اطباق السحاب انهارت قواعده والتمعت ناره وقصفت في الجو رواعده، واذ هي الرادفة، وانما هي زجرة واحدة، فإذا الخلق طعام الفناء واذا الأرض مائدة...[2]

١- الاسراء : ٨٨.

٢- اعجاز القرآن للرافعى،ص٢٦.

ولقد كانت للرسول العظيم عليه الصلاة والسلام معجزات كثيرة تدل على صدقه، وانه مرسل من قبل الله تعالى. فالمعجزة مختصة بالنبي دائما، وتقترن بالتحدي، ومن ثمّ لا يمكن تحصيلها بالجهد أو الاكتساب.

وكذلك للأنبياء معجزات ظهرت على أيدى كثير منهم، بيد أن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم تفوق معجزات غيره سواء من حيث العدد أو من حيث الأهمية.

فإذا كان الله قد أظهر معجزة لموسى هي أن يضرب البحر فانفلق فكذلك أظهر لمحمد عليه الصلاة والسلام فانشق له القمر في السماء.

وكما ظلل على موسى عليه السلام بالغمام فقد ظلل محمداً صلى الله عليه وسلم كذلك بالغمام. وكما جعل من معجزات موسى عليه السلام اليد البيضاء فقد جعل من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم القرآن. وكما سبّحت الجبال مع داؤد عليه السّلام فقد سبّحت الأحجار في يد الرسول صلى الله عليه وسلم وكما سخّر الله لداؤد الطير المحشورة، سخر لمحمد البراق يطير في السماء. وكما جعل من معجزات عيسى عليه السّلام إبراء الأكمه والأبرص...فقد جعل شبيها بذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فقد سقطت حدقة رجل في غزوة أحد فرقعها الرسول وردها إلى مكانها. وانقادت الجن لسليمان، وانقادت كذلك للرسول صلى الله عليه وسلم. ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تحصى ويمكن أن نضيف إلى ماذكرناه حنين الجذع وانقياد الأغصان، وجعل قليل الطعام كثيرا كل ذلك على مشهد من الناس ومسمع فلم ينكر أحد شيئا مما رآه أو سمعه رغم أن ذلك ليس في طاقة البشر أو مقدرتهم.[1]

وأفضل معجزات الرسول وأجلها شأنا هي معجزة القرآن الذي نزل بأفصح اللغات وأبلغها. فقد سحر القرآن العرب منذ أن استمعوا إليه في اللحظة الأولى، سواء من شرح الله صدره للإسلام وأنار بصيرته أو من طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة... فالوليد بن المغيره قال يصف

١- مفاتيح الغيب للرازي، ٣٠/١٢٥-١٢٦.

القرآن: والله إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه".

والقساوسة والرهبان يحكى عنهم القرآن: "**وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**".[1]

فالقرآن من شأنه إذا استمع إليه إنسان أن تتحرك مشاعره، ويهتزّ قلبه ويقشعرّ بدنه خوفاً ويعتصر فؤاده رجاء لما فيه من جمال في الأسلوب وقوة في التعبير. ولقد وصف الله كتابه عزّمن قائل: "**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**".[2]

فروعة القرآن يحسها القلب الخاشع، ولكن العرب كما وصفهم القرآن: "**قوم خصمون**".[3] وأعداء ألدّاء "**وتنذر به قوماً لداً**".[4] فأخذوا يتناولون القرآن بالتشكيك، ويشنّون عليه حملات شعواء، بغية التهوين من شأنه، والغضّ من قدره.

ولكن الله ردّ كيد الكافرين في نحورهم، فتحدى الرسول بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بسورة من مثله، ولكنهم عجزوا وأعرضوا عن معارضته، فكان ذلك داعياً إلى الاعتراف بإعجاز القرآن، وقصورهم أمام بلاغته.

والقرآن ليس معجزاً للعرب وحدهم، وإنما هو معجز للعربي وغير العربي، لأن دعوة الإسلام دعوة عالمية ليست مرتبطة بلغة معينة، ولا بوطن خاص، وإنما هي دعوة تحتوى العالم بأسره، ومن أجل ذلك كان القرآن معجزا لكل الأمم.

وحجة القرآن على العرب الفصحاء كحجته على غير العرب من الأعاجم كما أن حجّة موسى عليه السّلام في قلب العصا حيّة كانت لأمهر السحرة وحجّة عيسى عليه السّلام في إحياء الموتى لم تكن لأعظم الاطباء وحدهم، وإنما كانت للطبيب الماهر والخامل، وغير الطبيب على السواء، وإذا عجز أمهر السحرة وأعظم الأطباء عن الاتيان بمثل ما أتى به موسى وعيسى

١- المائدة : ٨٣.

٢- الزمر : ٢٣

٣- الزخرف : ٥٨

٤- مريم : ٩٧

عليهما السّلام كان ذلك أدعى إلى عجز غيرهم.

كذلك الشأن في معجزة القرآن، أتى به محمد صلّى الله عليه وسلّم لأفصح الناس وأقدرهم على نظم الكلام العربي، ورغم حرصهم على تكذيب الرسول، وإفساد دعوته، لم يفلحوا في مجاراته، ولم يستطيعوا تكذيبه.

وإذا كان العرب الفصحاء عاجزين عن مجاراة أسلوب القرآن في فصاحته وبلاغته، وغيرهم من الأعاجم أعجز.

ترى مثله القرآن في تعبيره ليسلك المسلك الخاص بالترتيب البديع حين يقول: **"إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا"**.[1]

فيقدم السمع اولاً ويثنى بالأبصار، وينتهى بالفؤاد، والحقائق العلميه تثبت أن حاسّة السمع تؤدى مهمتها أولاً منذ اللحظة الأولى من ولادة الإنسان. وحاسة الأبصار تؤدّي وظيفتها خلال عشرة أيام، فالبصر يؤدّي مهمته ثانيا، ثم يأتي بعد ذلك ما يتعلق بالفؤاد من المعلومات العقلية والقلبيه.[2]

فالترتيب الذي ورد في الآية القرآنية تلمح من خلاله أن اللفظ المقدّم أهم من ألفاظ التي ترد بعد ذلك، وهذا هو التعبير القرآني الدقيق، فإذا جاء هذا التعبير على وفق ما قرره العلم، كان التزواج بين أسلوب القرآن في بلاغته وفصاحته، وأسلوب العلم في اكتشافه وتقريره...فالأعجمي حين يرى هذا التماثل والانسجام بين التعبير القرآني والاكتشاف العلمي يتحقق من اعجاز القرآن في بلاغته.

على أن علماء النحو قد يكون لهم توجيه خاص في نظم الآية وأمثالها، فيقولون مثلاً إنّ واو العطف تأتي لمطلق الجمع، بمعنى أنه يجوز في الآية أن تقدم السمع على البصر وتؤخره دون أن يختل المعنى، غير أنه أصبح من الواضح هنا أن الترتيب فيه نوع من الالتزام، نظراً لأهمية المتقدم عما جاء بعده. ونلمح مثل هذا التوافق العجيب بين التعبير القرآني والتقرير العلمي حين يذكر

١- الاسراء : ٣٦

٢- القضاء والقدر لمتولي الشعراوي، ص١٢٧-١٣٠.

القرآن السمع مفردا، والبصر جمعا في آياته مثل قول الله تعالى: "وجعل لكم السمع والأبصار".[1] وقوله "وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم".[2] لأن الصوت لا مفرّ لك من سماعه مادمت لا تستعين بشيء خارجي يمنعك من السماع كوضع شيء في الأذن، بخلاف الصورة فيمكنك أن تراها فتدع عينك مفتوحة، ويمكنك ألاّ تراها فتغلق عينيك دون أن تستعين على عدم الرؤية بشيء من الخارج كما في حالة الامتناع عن السمع، فالأبصار متعددة حيث يراه بعض الناس، ويغمض الآخرون عيونهم عنه فلا يرونه، وحيث أنك ترى حين تريد، أو حين لا تريد، أما السمع فواحد حيث لا يمكنك الاّ أن تسمع أنت ويسمع الآخرون جميعا إذا انفجر صوت فالسمع واحد والأبصار متعددة.[3]

وإذا كان هذا هوالشيء المسلّم به والمقبول، كان تعبير القرآن بالإفراد عن السمع، وبالجمع عن البصر موافقا لما نعرفه ونسلم به...وبهذا يتحقق الاعجاز القرآني للعربي وغير العربي على السواء.

ومن خصائص الأسلوب القرآني الفذّ: أنه يجمع بين الجزالة والسلاسة، والقوة والعذوبه، وحرارة الإيمان، وتدفق البلاغة، فهو السحر والنور الباهر والحق الساطع والصدق المبين...ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا لله خاشعين. وما إيمان عمر رضي الله عنه حين سمع "طه"، وما فزع "عتبه" حين سمع "فصلت"، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي يتعبد فيها النبي الأمين صلى الله عليه وسلم ليلاً ليسمعوا هذه البلاغة خفية، وما عجزهم بعد التحدى إلاّ دليل الإعجاز وعظمة البيان وجلال الأسلوب.

ومن هذا المنطلق العجيب كان القرآن الكريم وحده هو كتاب الهداية، ولغة الحياة وقصة الكون الصادقة من بدايته إلى نهايته، بل هو تجديد لميلاد الإنسان على اختلاف الحقب وتوالى الأجيال، ومرور الدهور والعصور، نزل لمخاطبة النفس البشرية والأخذ بيدها، فهو معها آمرا وناهياً، مرشداً وواعظاً، مبشراً ومنذراً، حارساً ومدافعاً، مصبراً

١- النحل : ٧٨.

٢- فصلت : ٢٢.

٣- القضاء والقدر لمتولي الشعراوي، ص١٣١.

يخشعون لجلال هذا الكتاب وسبقه في هذه الميادين... ومن هذا اللون العلمي قول الله تعالى: "وأرسلنا الرياح لواقح"[1] "والأرض بعد ذلك دحاها"[2]... "يخلقكم في بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث".[3]

هذا هو القرآن في سموه وجلاله، وسحره وجماله وخلوده وكماله، ولقد وقفت الإنسانية صاغرة امامه، على الرغم مما يزخر به تاريخها من عباقرة وأساطين في الفكر والأدب والاجتماع، وما يحفل به من نوابغ لسن وخطباء مصاقع...وصدق الله تعالى: "ويسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً"[4]

إذا قلنا إن القرآن الكريم معجزة، فنقول: اين هي المعجزة في هذا الكلام؟ وماذا يبدو للناس منها؟ وماذا يشهدون من إعجازها؟ وكيف يضع الناس أيديهم على المعجزة؟ ويرفعون أبصارهم اليها؟

إنها معجزة لا ترى بالعين، ولا تلمس باليد! وعلى الناس أن يسمعوا لهذا الكلام، وأن يتدبروا آياته. وعندئذ يرون ببصائرهم-لا بأبصارهم-في كل آية معجزة قاهرة...تعنو لها الجباه، وتخضع لها الرقاب.

إن على الناس أنفسهم...أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لهذه الكلمات-فإنهم إن فعلوا تكشف لهم منها ما كان يتكشف من عصا موسى عليه السّلام ويده، ومن كلمة عيسى عليه السّلام...وهذا مفهوم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "وإنما كان هذا الذي أوتيته وحياً أوحى إليّ".[5]

إنها آيات...معجزات...وما يعقلها، ويعرف وجه الإعجاز فيها الاّ العالمون الذين يلقون أسماعهم لها، ويفتحون قلوبهم وعقولهم للحق الذي فيها، وللنور الذي معها.

ومن ثمّ كانت أنظار المسلمين دائما معلقة بهذا الكتاب، يدرسونه، ويتدارسونه، ويلقونه بكل ما تسعفهم به الحياة من علوم ومعارف، فيجدون كل شيء دون ما في كتاب الله من علوم ومعارف، فيزداد لذلك تعلقهم لكتاب الله، وتتوثق صلتهم به،

١- الحجر : ٢٢.
٢- النازعات : ٣٠.
٣- الزمر : ٦.
٤- الاسراء : ٨٥.
٥- الجامع الصحيح للبخاري (فتح الباري، ٣/٩) ٢/٧٤٤.

ومسلياً، معلماً وموجهاً، سميراً وجليساً، صديقاً وأنيساً، فهو الحياة في سموقها، والسعادة في أوجها، والكمال في أسمى معانيه، فلقد بلغ الغاية التي لا تدانيهاغاية في الرفعة والعلو، والخلود والسمو، فما أبدع تراكيبه وأورع أساليبه، وأسمى معانيه.

الله اكبر إن دين محمد

وكتابه أهدى وأقوم قيلا

لا تذكروا الكتب السوالف قبله

طلع الصباح فأطفىء القنديلا.

ولو ذهبنا نستقصي وجوه الإعجاز للقرآن الخالد، ونستعرض صفحات جلاله، لأعيانا الأمر، وانقطعت نفوسنا من شدة البهر، لأنه الكتاب الذي لا تنفد عجائبه، ولا تنتهي غرائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

وإن ما نذكره الآن من وجوه خلوده واعجازه، لهو قل من كثر، ووشل من فيض وقطرة من بحر، فمن هذه الوجوه:

١- قوة أسلوبه في كل ما تناول: فهو قوى في التعبير عن الأحكام، والأحكام والربوبيات كقوته في القصص وغيره.

٢- اشتماله على قصص وأخبار الأمم الماضية، وموقف كل امة من نبيها كل هذا ليسوقه القرآن في دقة بالغة، حتى كأننا نعيش في نفس الحوادث التي يعرضها، والذي بلغنا كل هذا إنما هو رجل امى لا يعرف القراءة أو الكتابة.

٣- اشتماله على نظام في الأخذ به سعادة الأمم وفي البعد عنه تعاستها وشقاؤها "**إن هذا القرآن يهدى للتى هي اقوم**".[1]

٤- سمو الروح، ونبل الهدف في القرآن: فهو ليس كتاب قصص أو تسلية، أو أدب أو حكمة أو فلسفه أو تاريخ أو اجتماع وإنما هو منهج متكامل للحياة الصحيحة في كل جوانبها.

٥- خلوده على مرّ الأيام، والعصور والأمكنة، مع عجز الناس عن معارضته، رغم أنه تحدّى ولا يزال...وتاريخ العالم مشتمل على الأفذاذ من الأدباء والبلغاء.

٦- وأخيراً وليس آخراً: ما جاء في القرآن من إعجاز علمي مبدع، جعل العلماء

١- الاسراء: ٩.

ويشتد إقبالهم عليه، ومدارستهم له.

وفي كل يوم من أيام المسلمين تظهر دراسات وبحوث في القرآن وعلومه، حتى لقد اجتمع من ذلك ما لا يحصى عدا.

ولقد كان نصيب "الإعجاز" في مباحث القرآن نصيباً موفوراً، وقد أفرده بعضهم بدراسة خاصة، كما فصّل عبدالقاهر الجرجاني والرماني والخطابي والباقلاني، إلاّ أن أكثر مباحث الإعجاز هي التي كانت تجيء ضمن مباحث التفسير أو القراءات. فمعظم المفسّرين حاولوا أن يجعلوا في صدور تفسيراتهم إشارات تتضمن آراءهم في فضل القرآن وفي إعجازه.

ولعل "الزمخشري" أشهر هؤلاء المفسرين وأولاهم بالذكر في هذا المقام إذ كان تفسيره "الكشاف" يبحث عن مناط الإعجاز في كتاب الله...في آياته، آية آية، وفي كلماته، كلمة، كلمة.

مراحل التحدي

فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث:

ا- تحداهم بالقرآن كله في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقول الله تعالى: "**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا**".[1]

قال القرطبي: "نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فأكذبهم الله تعالى".[2]

يقول صاحب فتح القدير شرحا لهذه الآية: "احتج سبحانه وتعالى على المشركين باعجاز القرآن".[3]

ب- ثم تحداهم بعشر سور منه في قول الله تعالى: "**ام يقولون افتراه، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم**

١- الاسراء: ٨٨.

٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣٢٧/١٠.

٣- فتح القدير للشوكاني، ٢٥٧/٣.

يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله".[1]

قال القرطبي في شأن هذه الآية: "فإن قالوا: افتريته-أي اختلقته فليأتوا بمثله مفترى بزعمهم".[2]

قال السيد قطب رحمه الله: "وقد قالوا إن هذا القرآن مفترى، فتحداهم إذن ان تفتروا عشر سور كسوره، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء"[3] بالإتيان بعشر سور من مثل القرآن فعجزوا وقامت عليهم الحجة وثبت أن القرآن كلام الله ووحيه".[4]

ج- ثم تحداهم بسورة واحدة: منه قول الله تعالى: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله"[5]

يقول ابن كثير شرحا لهذه الآية الكريمة: "فأتوا بسورة من مثل ماجاء به، إن زعمتم أنه من عند غير الله".[6]

قال القرطبي: "قال ابن كيسان، وهو أمرٌ معناه التعجيز، لأنه تعالى علم عجزهم عنه".[7]

يقول السيد قطب: "أما التحدي فمنظور فيه إلى مطلع السورة..... فهذا الكتاب المنزل مصوغ من تلك الحروف التي في أيديهم، فإن كانوا يرتابون في تنزيله، فدونهم فليأتوا بسورة من مثله، وليدعوا من يشهد لهم بهذا-من دون الله-فالله قد شهد لعبده بالصدق في دعواه، وهذا التحدي ظلّ قائماً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم-وبعدها- وما يزال قائماً إلى يومنا هذا وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها...وما يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر تميزا واضحاً قاطعاً، وسيظل كذلك أبدا".[8]

وهكذا عجز العرب عن معارضة القرآن

١- هود: ١٣-١٤.

٢- الجامع لأحكام القرآن، ١٢/٩.

٣- في ظلال القرآن، ١٨٦١/١٢.

٤- أيسر التفاسير، ٣٢٧/٢ وانظر مختصر ابن كثير، ٢١٤/٢.

٥- البقرة: ٢٣.

٦- مختصر ابن كثير للصابوني، ٤١/١.

٧- الجامع لأحكام القرآن، ٢٣٢/١ وانظر ايضا ٦٩/١ (القرطبي) في موضوع ١٠٠ اعجاز القرآن.

٨- في ظلال القرآن، ٤٨/١.

مع توفر الدواعي عجز للغة العربية في ريعان شبابها وعنفوان قوتها.

والإعجاز لسائر الأمم على مرّ العصور ظلّ ولا يزال في موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العلم الحديث ما هي إلاّ مظاهر للحقائق العليا التي ينطوي عليها سرّ هذا الوجود في خالقه ومدبِّره، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه-فصار القرآن بهذا معجزاً للإنسانية كافة.

هذا وبالله التوفيق. وصلى الله على النبي وآله وسلّم.

المصادر والمراجع

(١) إعجازالقرآن الرافعي- الرافعي- مصر- ١٢٩٧هـ.

(٢) أيسر التفاسير- ابو بكر الجزائري- السعودية- ١٤٠٧هـ.

(٣) البرهان في علوم القرآن- الزركشي- دار احياء الكتب العربية -١٣٨٦هـ.

(٤) تفسير غريب القرآن- ابن قتيبة- مصر-١٣٧٨هـ.

(٥) الجامع الصحيح- الامام البخاري- كراتشي- ١٣٨١هـ.

(٦) الجامع لأحكام القرآن- القرطبي- دار احياء بيروت -١٩٦٦م.

(٧) فتح الباري- ابن حجر- بيروت.

(٨) فتح القدير- الشوكاني- دار الفكر بيروت- ١٩٧٣م.

(٩) في ظلال القرآن- سيد قطب- دار الشروق القاهرة- ١٩٧٩م.

(١٠) القضاء والقدر- متولي الشعراوى- دار الشروق القاهرة.

(١١) مباحث في علوم القرآن- مناع القطان- منشورات العصر الحديث.

(١٢) مختصر ابن كثير- محمد علي الصابوني- بيروت- ١٩٨١م.